بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 31 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:05\01\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

ما زال الكلام في الآية الخامسة عشر: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِه عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وخلاصة المطلب: أن الباري تبارك وتعالى في هذه الوصية للأبناء بالوالدين بين بمقتضى هذه الآية أن مجال هذه الوصية يكون في صورة عدم الاختلاف في العقيدة، فليس من شكر الباري تبارك وتعالى أن يكون الابن شاكراً لوالديه بإطاعتهما بما هو مخالف لإرادة الله تبارك وتعالى، ولكن هذا الاختلاف في العقيدة لا ينبغي أن يكون مانعاً عن بر الولد بوالديه في هذه الرحلة القصيرة في عالم الدنيا ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾ لابد للإنسان مع هذا الاختلاف في العقيدة، لابد من أن يحافظ على برهما، ثم يعطينا في السير في هذه الدنيا في هذا الطريق القصير ضابطة عامة، بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾ الطاعة والاتباع مدارها أن يكون المتبع ممن ينيب إلى الله تبارك وتعالى، ممن يرجع إليه في كل صغيرة وكبيرة، فإن كان الوالدان ممن ينيب إلى الله تبارك وتعالى فاتبعهما، وإلا فأنت مكلف فقط بمصاحبتهما في هذه الدنيا بالمعروف، إذن هذه هي الضابطة الكلية ﴿وَاتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾.

طبعاً في هذه الضابطة بمقتضى إطلاقها تدل على عصمة المتبع ﴿أَنابَ إِلَيَّ﴾ لا في شيء دون شيء، بل ﴿أَنابَ إِلَيَّ﴾ في جميع الأشياء، فالمتبع لابد أن يكون في كل حركاته وسكناته وتصرفاته سائراً على الطريق المستقيم باتجاه الله تبارك وتعالى، هذا إذن يمكن لنا أن نتبعه، على أي شخص صدق، وإن كانت في الخارج لا يصدق إلا على الأنبياء والأوصياء.

ثم في ختام الآية يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ فختم الحديث عن التوحيد ونفي الشرك بأن ذيل هذه الآية بما يدل على يوم الجزاء والحساب، فربطت بين المبدأ والمعاد، تمهيداً للمتابعة في وصية لقمان؛ لأن الوصية الثانية للقمان الحكيم ترتبط أيضاً بالمعاد، فإذن ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ فهذه الوصية التي قدمت إلينا من قبل الله تبارك وتعالى سوف نجازى عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر؛ لأننا بأجمعنا نرجع إلى الله سبحانه وتعالى فيجازينا على أعمالنا.

هذا تمام الكلام بما يرتبط بهذا اعتراض بين وصايا لقمان لابنه، كما بينا أن الآية الرابعة عشر والخامس عشر هي من الجمل الاعتراضية.

الآية السادسة عشر: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير﴾

عندما ذيل الآية السابقة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ هنا قد يحصل توهم أن الله سبحانه وتعالى هل يستطيع أن ينبئنا بجميع أعمالنا؟ بعض أعمالنا من أعمال الجوارح الظاهرة وبعض أعمالنا من أعمال الجوارح الباطنة، فهل الباري تبارك وتعالى يستطيع أن ينبئنا بجميع ذلك؟ فجاءت وصية لقمان الثانية لتدل على سعة إحاطة الله تبارك وتعالى بالكائنات، فيقول: ﴿حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ هذه الحبة الصغيرة جداً، هذه يستطيع أن يخرجها، وإذا ارتبط بها ثواب أو عقاب يرتبه عليها.

لكن لتأكيد هذا الهدف، جاء بما يسمى في علم المعاني بالتذييل، كما في قول النملة: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُون﴾ أن سليمان لو حطم نملة يكون من باب عدم علمه وشعوره، لا من باب العمد.

هنا حبة خردل[1] يصعب رؤيتها في حد ذاتها، فكيف إذا كانت هذه الحبة في صخرة أو في السماوات أو في الأرض. العجيب من الفخر الرازي على طريقته التشكيكية يأتي ويقول: أن صخرة لا يخلو إما أن تكون في السماوات وإما أن تكون في الأرض، فلا تصح المقابلة، كأنه شخص قال: اشتري من

[1] الخردل نبات ينتمي إلى جنسي الكرنب، وهي حبات صغيرة.

زيد أو من عمرو أو من إنسان، زيد وعمرو إنسان، فهذا التنوع بين الصخرة وبين الأرض والسماوات لا تصح المقابلة فيه، ثم شرع في ذكر وجوه في غاية البعد[2].

والحال أن المقصود بهذا التنوع الإشارة إلى هذه النكتة التي ذكرتها، أن حبة الخردل في حد ذاتها يصعب رؤيتها، فحتى هذا صعب الرؤية الله يخرجه، لكن أراد أن يؤكد هذا المعنى أكثر، هذه الحبة الصغيرة مرة تكون مختبئة خلف صخرة فلا تراها، فيحصل صعوبة على صعوبة، أيضاً من الأمور التي تورث الصعوبة في الرؤية اتساع دائرة التفتيش، مرة مثلاً تعلم بأن حبة خردل وقعت على هذه الصفحة، فتفتش في هذه الصفحة، مساحة هذه الصفحة محدودة، حبة الخردل وإن كانت صغيرة، لكن في النتيجة في منطقة محدودة جداً، أما لو كانت حبة الخردل في السماوات، في هذه السعة الكبيرة المطلقة، أو في الأرض بما تحتوي من مياه ووهاد وجبال، فيقول: حتى مع هذه السعة الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخرج هذه الحبة الصغيرة.

فإذن إضافة الصخرة والسماوات والأرض إنما كان لتأكيد هذا الهدف الأكبر، مهما صغر الشيء وصعب التقاطه وصعبت رؤيته، حتى لو كان هناك عوامل أخرى تمنع من الرؤية ومن الإيجاد، كأن يكون خلف صخرة أو يكون في مكان في غاية السعة، مع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى الذي هو على كل شيء قدير، هذا الشيء الصغير مع موانع الرؤية يستطيع أن يخرجه ويأتي به.

فإذا ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ [مقدار حبة] مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لو قالت الآية هكذا: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ [مقدار حبة] مِنْ خَرْدَلٍ﴾ ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ الهدف يحصل؛ لأن حبة الخردل صغيرة جداً، لكن أراد أن يؤكد هذا أكثر، هذا الشيء الصغير مع وجود موانع:

---

[2] مفاتيح الغيب، ج25، ص: 121. المسألة الثانية: لو قيل الصخرة لا بد من أن تكون في السموات أو في الأرض فما الفائدة في ذكرها؟ ولأن القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلاً في أحد القسمين فكيف يفهم هذا، فنقول الجواب عنه من أوجه أحدها: ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء والثاني: ما قاله الزمخشري وهو أن فيه إضمارا تقديره فتكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الأرض والثالث: أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز، أما الثاني فلما بينتم أن من قال هذا في دار زيد أو في غيرها أو في دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله أو في غيرها، وأما الأول فلأن قول القائل هذا في دار زيد أو في دار عمرو أو في غيرها صحيح غير قبيح فكذلك هاهنا قدم الأخص أو نقول خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر ومنها أن يكون بعيداً، ومنها أن يكون في ظلمة، ومنها أن يكون من وراء حجاب، فإن انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيراً قريباً في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العبادة، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله: إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ إشارة إلى الصغر وقوله: فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ إشارة إلى الحجاب.

المانع الأول: أن يكون في صخرة.

المانع الثاني: أن يكون هذا الصغير سعة التفتيش عنه كسعة السماوات والأرض.

فهذا آكد في بيان هذا الهدف التي صيغت لأجله هذه الشريفة.

﴿يا بُنَيَّ إِنَّها﴾ الضمير ﴿إِنَّها﴾ هنا اتفق علماء التفسير أن مرجع الضمير في ﴿إِنَّها﴾ متصيد من السياق، وليس كلمة مخصوصة تقدمت، ما عندنا كلمة تقدمت نريد أن نرجع إليها ﴿إِنَّها﴾ الهاء، وإنما المتصيد من السياق بعد أن قال: ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ فالمقصود ما يرجع إلى هذه الأعمال من أفعال من حسنات وسيئات، وما يترتب عليها، هذا يجسمه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أمامنا جميعاً ويحاسبنا عليه، كبيراً كان أم صغيراً؛ لأن قدرة الله تبارك وتعالى تصل إلى هذا الحد، أن الشيء الصغير الذي هو غاية الصغر مع الموانع يستطيع أن يأتي به في يوم القيامة.

﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير﴾ هناك بحث في تذييلات الآيات الشريفة في القرآن الكريم، تعرفون الحادثة المشهورة في سورة المائدة عند الكلام عن السارق والسارقة، قرأ أحد الصحابة ما ذيلت به الآية، فقال: غفور رحيم، فكان معه إعرابي فسمع قراءة هذا الصحابي، فخطأه، قال: لا يعقل أن يكون مع العقوبة تأتي بغفور رحيم، لا يمكن أن يكون قد أنزلها الله سبحانه وتعالى، فرجع إلى الآية وجدها: عزيز حكيم، فقال له الأعرابي عزّ فحكم. فكانت عزيز حكيم[3]. هذا يعني أنه لابد من التناسب بين هذا التذييل وبينما يوجد من مضمون فيما يسبقه، وما نحن فيه من هذا القبيل.

[3] مفاتيح الغيب، ج11، ص: 357. قال الأصمعي كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي، فقرأت هذه الآية فقلت (والله غفور رحيم) سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. قال أعد، فأعدت: (والله غفور رحيم)، ثم تنبهت فقلت وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فقال: الآن أصبت، فقلت كيف عرفت؟ قال: يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع.